المحاضرة 03: أهم تصورات علم اللغة الاجتماعي (1)

لم يكن الاهتمام باللغة في علاقتها بالمجتمع وليد الستينيات من القرن العشرين، رغم أنّ علم اللغة الاجتماعي قد تأسس في هذه الفترة، فهناك «تراث قديم العهد في دراسة اللهجات وفي الدراسات التي تناولت العلاقة بين معاني الكلمات والثقافات المختلفة». فقد ظهرت عدة تصوّرات اجتماعية للغة قبل وبعد نشأة علم اللغة الاجتماعي، طوّرها علماء بارزون من خلال دراساتهم للوقائع الاجتماعية التي تؤثّر في الظاهرة اللغوية.

إنّ بعض التصورات التي سيتمّ ذكرها قد ظهرت في أحضان اللسانيات البنوية ؛ كالصراع القائم بين تصوّر أنطوان ميبه (A. Meillet) وفرديناند دي سوسير، ومواقف الماركسية حول اللغة، والبعض الآخر تطوّر في صلب علم اللغة الاجتماعي ؛ كدراسات فيرقسون حول الازدواجية اللغوية، ودراسات برنشتاين حول المعوّقات اللغوية، وجهود المؤسس الحقيقي للسانيات الاجتماعية، وهو وليام لابوف.

1– موقف سوسير وبعض البنويين: لقد عُرف وليام وايتني بتفرّده ببعض الآراء التي خالف بها علماء اللغة التقليديين، رغم عدم تمكّنه من صياغة أسس اللسانيات الحديثة مثل دي سوسير، حيث خالف وايتني أطروحة اللساني الألماني أ. شلايشر (A. Schleicher) التي مفادها **أنّ اللغة ظاهرة طبيعية وأنّ علم اللغة هو علم طبيعي**، فكان الأمر مختلفا بالنسبة لوايتني الذي يقرّ بأنّ اللغة واقعة اجتماعية، فهو «يعدّ اللغة إحدى النظم الاجتماعية».

وكان سوسير ملهما بفكرة وايتني، معتبرا اللغة بدوره، «حقيقة اجتماعية»، وأنّها «نتاج اجتماعي لملكة اللسان، ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة»، وفي تحديده للثنائية اللغة والكلام، يرى سوسير أنّ اللغة ذات طابع اجتماعيّ، وأنّ الكلام ذو طابع فرديّ، إذ أقرّ في سياقات كثيرة من محاضراته بالمظهر الاجتماعي للغة، لكنه يدعو إلى دراسة اللغة بالتركيز على القواعد التي تتحكم في البنية الداخلية لها.

وفي الفترة نفسها، اهتمّ الأنثروبولوجيون الأمريكيون؛ أمثال سابير (Sapir) وبواز (Boas) وورف (Woorf) واللسانيون البنويون أمثال بلومفيلد (Bloomfield) وهاريس(Harris) باللغات الهندو أمريكية، فأسهموا في ميلاد اللسانيات البنوية الأمريكية وقيامها على أسس أنتروبولوجية، لكن لم يدرس هؤلاء اللغة في ذاتها من أجل ذاتها، بل ربطوها بالمحيط الاجتماعي والمأثورات الشعبية، وأقرّ بواز بأنّ السمة الأساسية للغة البشرية هي الاختلاف والتميّز، واشتهر هؤلاء بدراسة اللغة بربطها بسياقها الثقافي واعتبروها منجزا اجتماعيا.

2- أنطوان مييه والطابع الاجتماعي للغة: لقد سبق اللغوي الفرنسي أنطوان مييه (1886-1936) اللغويّين الاجتماعيين إلى تأكيد الطابع الاجتماعي للغة، ففي الوقت الذي كان فيه دي سوسير منهمكا في إرساء أسس اللسانيات البنوية، كان مييه يحدّد اللغة في كونها «حقيقة اجتماعية، ولم يستخدم أبدا تركيبات: "sociolinguistique" أو "la sociologie du langage" بل يكتفي بتأكيد أنّ اللسانيات بالنسبة له هي "علم اجتماعي"».

تأثّر أنطوان مييه بأستاذه إميل دوركايم (Émile Durkheim)، فقال في مقال له نشره سنة (1905- 1906) بعنوان (كيف تتغيّر معاني الكلمات؟): «اللغة إذن ظاهرة اجتماعية بامتياز، ذلك أنّها واردة في التحديد الذي اقترحه دوركايم».

ومن القضايا الأساسية التي أثارها مييه في مقاله، تأكيده على أهمية العوامل الاجتماعية في التنوّع اللغوي، اللغة واقعا اجتماعيّا، ويرى أنّ مهمة اللسانيات هي تحديد البنيات اللسانية التي تتطابق مع البنيات الاجتماعية». ويرى مييه أنّه يجب الجمع بين الثنائيات التي ميّز سوسير بين أطرافها، فجمع بين شكل اللغة ووظيفتها، وبين اللسانيات الخارجية والداخلية، وبين المنهج الآني والمنهج التعاقبي، وأقرّ بأنّ «اللسانيات علم اجتماعي وأنّ العامل الوحيد المتغيّر الذي يمكننا الالتجاء إليه للإبانة عن التّغيّر اللغوي إنّما هو التغيّر الاجتماعي». وسيتبنى وليام لابوف هذا الطرح، في الستينيات من القرن العشرين، من أجل تأسيس ما يسمى بعلم اللغة الاجتماعي التغيّري(*Sociolinguistique variationniste*)، إذ قال لابوف في الستينيات ((**كان أ. مييه معاصرا**

لسوسير يرى أنّ القرن 20 سيشهد تبلور منهج للتفسير التاريخي مبني على فحص التغيّر اللغوي من حيث إِندراجه في التّحولات الاجتماعية)).

3- البعد الاجتماعي للغة من منظور الاتجاه الماركسي: من أبرز العلماء الذين تبنوا الاتجاه الماركسي في نظرتهم إلى اللغة، نجد مارسل كوهن[1] (Marcel Cohen) (1884-1974) وبول لافارج (Paul Lavargue)، وغيرهم، ممن تأثروا بأفكار ك. ماركس (K. Marx) وأنجلز (Engels)، حيث:

- تأثر كوهين بالفكر الماركسي، وتجلى ذلك في تأكيده على **الطابع الاجتماعي للغة، واعتبارها أداة تتشكّل وفقا للسياقات الاجتماعية والتاريخية،** وكان يرى أن دراسة اللغة يجب أن تشمل **البنية الاجتماعية، والصراع الطبقي، والتغيرات التاريخية،** ويربط التغيّر اللغوي بالتحوّلات الاقتصادية والسياسية. واهتم **بلهجات ولغات الطبقات الشعبية،** ورفض الفكرة القائلة بأن هناك "لغة راقية" مقابل "لهجات منحطة"، هذا يعكس تأثره بالمادية التاريخية التي تعتبر أن جميع أشكال التعبير اللغوي متساوية في قيمتها الموضوعية، حتى لو تم تهميش بعضها من قبل الطبقات المهيمنة.

-يرى بول لافارج أن اللغة مثل بقية البنى الثقافية، يمكن أن تُستخدم لخدمة الأيديولوجيات المسيطرة، وخاصة الرأسمالية، وأنّها تتشكل وفقًا لمصالح الطبقة الحاكمة. كما يعتبر **اللغة كأداة للتحرر أو القمع،** وذلك حسب من يسيطر عليها ويوجه استخدامها.

أنجز لافارج دراسة حول المعجم الفرنسي قبل وبعد الحرب لتوضيح التغيرات التي طرأت على مفردات اللغة الفرنسية بسبب تغيّر الأوضاع والظروف في فرنسا.

- وقد عُرف العالم السوفياتي نيكولاي مار (Nicolaï Marr) بفكرته التي مفادها أنّ هناك أصل واحد لجميع لغات العالم، حيث إنّ التواصل كان قائما (حسبه) أوّلا على الحركات، ثمّ ظهرت عناصر صوتية: (Sal,Ber,Yôn,Roch) لتتشكل لغة طائفة في الحكم، يعني أنّ اللغة كانت منذ نشأتها أداة السلطة، وتتسم دائما بتقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية. بعد ذلك تطوّرت هذه الأصوات

---

[1]- بول لافارج (Paul Lavargue): صحفي فرنسي (إسباني الأصل) وعالم اجتماع، وناقد أدبي، اشتراكي ثوري، وهو زوج (لورا ماركس) ابنة (كارل ماركس)، فهو مفكر ماركسيّ وكاتب اشتُهر بنقده للرأسمالية، ناقدا للأساليب التي تُستخدم بها اللغة الفرنسية في التعليم والدعاية الإديولوجية.

وتغيّرت وتزايدت لتعطي اللّغات المختلفة في العالم. واللغة حسب (مار) تعكس الصراع الطّبقي، حيث إنّ الطبقات الاجتماعية تؤثّر بوضوح في اللغة. وتحمل نظرة (مار) الرؤية العنصرية الماركسية التي تستهدف توحيد اللّغات والقضاء على الأخرى، مثلما تستهدف القضاء على الصراع الطبقي ووجود الدّولة، ممّا جعل (مار) يدعو إلى لغة عالمية واحدة؛ مثل: اللغة الاصطناعية (الإسبيرانتو Esperanto)، مع العلم أنّ النّظرية الماركسية للغة في الاتّحاد السوفياتي تحوّلت بالفعل إلى نظرية لسانية استمرت إلى غاية الخمسينيات من القرن العشرين. وهناك علماء آخرون تزعموا هذه النّظرة، منهم رومان جاكوبسن (R. Jakobson) وميخائيل باختين (M. Bakhtine).

5– ظهور المصطلح: يشير القاموس أكسفورد الإنجليزي إلى أنّ مصطلح "اللسانيات الاجتماعية" أُستعمل لأوّل مرة في مقال نشره توماس هودسون*(Thomas Hodson) سنة (1939) حول (السوسيولسانيات في الهند)، ثمّ استخدمه يوجين نايدا (Eugene Nida) في الطبعة الثانية من بحث له حول الصوتيات سنة (1949)، ثمّ هوجين (Haugen) سنة 1951، واستخدمه أ. فانريش (Uriel Weinreich) سنة (1953)، وسينشر مارسل كوهن (Marcel Cohen) سنة (1956) عمله الموسوم (Matériaux pour une Sociologie du Langage)، لكن ميلاد مصطلح (linguistics) منذ سنة (1939) لا يعني أنّ علم اللغة الاجتماعي قد تأسّس كعلم قائم بذاته.

وفي الستينيات في كلّ من الولايات المتّحدة الأمريكية وبريطانيا كان هناك اهتمام كبير باللسانيات الأنتروبولوجية التي ارتبطت بالأوصاف البنوية للغات المدروسة. ففي الولايات المتّحدة ارتبط ذلك بأسماء كثيرة مثل: بواز(Boas) ووسابير(Sapir) ووورف(Whorf)، وفي بريطانيا مع مالينوفسكي (Malinowski) وفيرث (Firth) وزملائه في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في لندن (المدرسة الإنجليزية). وقد أدّى كلّ منهم إلى ظهور نظريات مميّزة للبنية اللسانية ساعدت في تشكيل البحث السوسيولساني.

---

* - هناك توماس هُودسون (Thomas Callan Hodson): الذي عاش من **1871** إلى **1953** .كان هدسون عالم أنثروبولوجيا بريطانيًا بارزًا، يُذكر له إسهاماته في دراسة الأنثروبولوجيا الهندية، ويُنسب إليه **صياغة مصطلح "اللسانيات الاجتماعية."**

- و رتشارد هِدسون (Richard Hudson): وُلد سنة 1939، ومازال على قيد الحياة، وهو لساني اجتماعي بريطاني أيضا، أحد أشهر أعماله هو كتابه **Sociolinguistics"، "اللسانيات الاجتماعية".**